نظرية الوساطة في الفن القصصي(*)

د. مبارك العلمي(**)

نظرية

الوساطة، فكرة وتطبيق : ''القصة وما الذي هم به الصديق ؟؟''.

الوساطة لغة وفكرة :

قال ابن فارس في مقاييس اللغة: ''الواو والسين والطاء، بناء يدل على العدل والنصف، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه'' وبهذا المعنى نطق القرآن الكريم، وعليه دل، قال الله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾ البقرة : 143.

﴿**حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾ البقرة : 238.

﴿**..قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون**﴾ القلم: 28.

إن مفهوم الوسطية في استعمال القرآن الكريم، يلازم العدل والخيرة والفضل، وهي المعاني التي يباركها العرف والاستعمال ، قال زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وقال ابن الرومي واللوعة ملء قلبه:

توخى حمام الموت أوسط صبيتي.

وهي المعاني التي تلاحظ في المجال الحسي، فالشمس تتوسط السماء، والجوهرة تتوسط العقد، والسيد يتوسط المجلس، وبذلك يتراءى الوجهان ويلتئمان، يزين أحدهما الآخر ويلابسه في التصور العقلي والإدراك الحسي.

ويتسق مفهوم الوساطة والوسيط، وتتسع دلالته في حضن النقد الأدبي، من خلال ''الوساطة بين المتنبي وخصومه''، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، فإن مطلب العدل والإنصاف والتقريب بين المحبين المعجبين الغالين، وبين الخصوم الكارهين الناقمين، بين لا يخفى، والساعي في تبيانه وتحقيقه كريم محمود لا يخزى. وما أكثر الأحكام والمراجعات بين أهل الأدب واللغة والنحو، التي تتوسط لتكف الغلو من طرفيه، وإلى هذه الحقيقة رمى ابن قتيبة-

(*) بحث هيء لندوة تكريم الأستاذ الناقد إدريس ناقوري.
(**) عضو المجلس العلمي المحلي بالدار البيضاء .

رحمه الله حين قال: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر -مختارا له- سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه.." الشعر والشعراء: 1: 98.

الوسطية ونظرية الوساطة:

يقول الباحث بوجود أوجه تشابه وتلاق بينهما وذلك من حيث:

- اشتراكهما في الأصل اللغوي، (و،س،ط).

- اشتراكهما في وظيفة الوسيط.

الاتفاق في الدلالة، فالوساطة الإيجابية هي بالتحديد نوع من الوسطية الإسلامية" ن الوساطة: 1/58.

ونلحظ في الوجه الثالث عنصرا أجنبيا دخيلا، يتضمنه ما يسميه الأصوليون "مفهوم المخالفة"

وذلك أن وصف الوساطة بالإيجاب، يستلزم أن يكون فيها ما هو سلبي، وذلك هو المراد بالعنصر الدخيل الأجنبي، لأن الأصل في مادة (و،س،ط) العدل والنصف، والعدل أم الفضائل، وهو أساس المكارم والقيم العليا، قال الله تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾** النحل: 90.

﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم﴾ الأنعام: 115.

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا﴾ النساء: 115.

وكما أمر الله تعالى عباده، كلهم أجمعين، أن يحكموا بالعدل، الشامل المطلق، فيما دق من الأمور، وفيما جل، حسب الطاقة والوسع، فإنه تعالى شدد في الأمر بالحكم بالحق، قال سبحانه: **﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾** ص: 26.

فالحق عند الله تعالى هو العدل، والعدل هو الحق، وبالحق خلق الله السماوات والأرض، **﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إل بالحق، وإن الساعة لآتية، فاصفح الصفح الجميل، إن ربك هو الخلاق العليم﴾** الحجر: 86.

إن القول بوجود وساطة سلبية، هو خروج عن نهج قويم، وهو تحريف للكلم عن مواضعه، ولهذا التحريف، ولذلك الخروج أصل وسبب، إنه الإنسان، مصدر الوساطة وقرارها المكين.

■■ إن القول بوجود وساطة سلبية، هو خروج عن نهج قويم، وهو تحريف للكلم عن مواضعه، ولهذا التحريف، ولذلك الخروج أصل وسبب، إنه الإنسان، مصدر الوساطة وقرارها المكين ■■

الوساطة حقيقة إنسانية وبيان كونها كذلك: "إنها تعيش فينا ومعنا، تتخلل أدق مواقف حياتنا، وتقود كثيرا من تصرفاتنا وردود أفعالنا، إنها شيئ كامن فينا.. فالوساطة إنسانية، لأنها جزء من جبلة البشر، وحقيقة من حقائق طبعه وتكوينه" ن الوساطة:13/1.

"أما لماذا كانت الوساطة ظاهرة إنسانية؟ لماذا ارتبطت بالإنسان أولا وأخيرا، في نشأتها وتحويلها؟.. فتلك أسئلة تقودنا إلى صميم الموضوع، وتحيلنا على أساليب بحثه، وطرائق معالجته، ومما لا شك فيه أن علوم الإنسان المختلفة، ومنه على وجه التحديد الأنثروبولوجيا، قمينة بإضاءة هذه الأسئلة، وقادرة على تقديم إجابة شافية لها، وليست علوم الإنسان بحصر المعنى هي المرشحة وحدها لتحليل وإيضاح ظاهرة الوساطة، فللأديان كذلك كلمتها في الموضوع، لأن الدين أصل الفن، وهو المجال الفسيح الذي يلتقي فيه العلم والفن، وتتفاعل مختلف النشاطات الإنسانية، كما تتداخل مختلف العلاقات الاجتماعية وغيرها، باعتباره بؤرة المعارف التي تنتظم فيها، وتتركز علاقة الإنسان بخالقه وبواقعه الاجتماعي، وبغيره من بني جلدته، وفي غمرة هذه العلاقات، والتفاعلات المختلفة ينمو الإنسان ويتطور، وتتجذر فيه حقائق ومشاعر، تصبح بمثابة ثوابت، لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، ولا يجد عنها محيدا، مثل الحسد والغيرة والأثرة والأنانية والظن والتقليد.. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال : «ثلاثة لا يسلم منهن أحد، الطيرة والظن والحسد.."
المصدر نفسه:77/1.

إن الإنسان مخلوق ضعيف وكفور ويؤوس وقتور وظلوم وكنود، وأكثر شيء جدلا"
المصدر نفسه:87/1.

ويحق لقارئ هذا الكلام، أن يلقي سؤالين اثنين:

أولهما: كيف انتهت الوسطية والوسط والتوسط والوساطة.. ومبدؤها العدل والحق والخيرة والفضل، من كل ما يكرم ويحسن ويطيب ويسمو.. حسا ومعنى، كيف انتهت الكلمة الرمز، تشرق في أفق المعاني، ويتعطر من عبق أريجها القصي والداني، كيف انتهت، كيف تردت، كيف هوت من عليائها لتتحطم رذاذا ملوثا على صخرة الرغبة الدنية اللاهثة الهلوع، رغبة اللحم والدم؟؟؟

وثانيهما: كيف ومتى انحط الإنسان- وهو المخلوق المكرم، الذي خلقه الله بيديه، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، وسخر له من كل شيء، واستخلفه في الأرض وجعلها له محرابا، شعاره في تقلبه وسعيه في مناكبها الطاعة لربه والصبر والمصابرة والمرابطة والجهاد في سبيله لنيل الرضاء، وتحقيق الولاء، فيباهي به الله الحكيم العليم،ملائكته الكرام عمار السماء، كيف انحط الإنسان من علياء، وقد أقسم العلي العظيم، وقسم العظيم عظيم، والمقسم عليه، أن الإنسان على ربه لكريم: ﴿**والتين والزيتون وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم**﴾ التين: 1-4.

﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل**

لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ الروم: 30-32 .

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ الأعراف: 172-174.

سؤالان خطيران: كيف هوت الوسطية والوساطة من قمتها الشماء؟ وكيف انحط الإنسان المكرم المستخلف من علياء؟.

ويأتي الجواب صريحا غير مكنى، فصيحا غير خفي، فقد تطلع الفكر نحو أفق أعلى بعيد، ورام البصر إدراك غيب مغيب، لا منتهى له، لا تنذه المدارك فهو على أبد الآباد مديد، إن زمام النفس الإنسانية، كان ولا يزال بيد خالقها، سبحانه، فقوله الحق، وبيانه البيان، قال من له الخلق والأمر، من لا يحجب علمه زمان ولا مكان:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..﴾ الرعد: 11.

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الله سميع عليم﴾ الأنفال: 53.

﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ الكهف: 51.

وقد بار سعي الفكر وخاب، وخبط في التيه، إذ ترك ما يعنيه ويبنيه، وخاض في ما يلهيه ويشقيه، وما أصدق الشاعر حين قال:

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي
ومن أين، والغايات بعد المذاهب

سؤالان خطيران: لا يجدان جوابهما الشافي الكافي في الرغبة والوساطة.

منشأ الرغبة والوساطة، والعلاقة بينهما؟

"الرغبة أساس الوساطة، وهي في المفهوم الديني- القرآني تحديدا- نوعان: إيجابية وسلبية، وتتطلب كل رغبة توافر شرطين على الأقل، راغب ومرغوب فيه ووساطة، فالوساطة هي مبرر وجود الرغبة، لأن الرغبة والوساطة، مثل الغاية والوسيلة، فكما أنه لا غاية بدون وسيلة، فكذلك لا رغبة بدون وساطة، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وإذا كانت الرغبة أساس الوساطة، لأنها غاية والوساطة وأداتها، فإن الإنسان هو أساس الرغبة ومصدرها، فالرغبة في أصفى معانيها وأعقد مظاهرها، وأدق تقلباتها هي الإنسان، هي الذات البشرية، هي نفس بني آدم" ن الوساطة: 1/ 232 .

وقد عرف الإنسان من قبل ن الوساطة : 87/1، بأنه المخلوق الضعيف، الكفور اليؤوس القتور الظلوم الجهول، الكنود..."

هي النفس الإنسانية مصدر تلك الرذائل التي اسود لها أفق الحياة بعد إشراق، وتجهم البشر وغزت البسمة من وجه الوجود بعد بشاشة وانطلاق.

إن هذه الصورة الكئيبة البئيسة عن

النفس الإنسانية لا تجد القبول إذا عرضت على القرآن الكريم،كلام الحكيم العليم، وفيه تنويه بالنفس الإنسانية، وفيه تكريم وتزكية، فيه إكمال وتعدي وتسوية، قال جل شأنه: **﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها..﴾** الشمس: 10/1.

إن للنفس -عند الله العظيم- لشأنا عظيما، وقدرا رفيعا كريما، وكيف لا تكون كذلك، وقد أقسم بها الجليل، كيف لا تكون لنفس بمكان الشرف والعلو والرفعة، وهي آية من آيات قدرة الله تعالى، جعلها في قرن مع السماء وما عليه انطوت، ومع الأرض وما ضمت وما احتوت، كيف لا تكون النفس بمقام التفضيل والتكريم، وقد أعدها الحكيم الخبير للاستخلاف، وحملها أمانة عجزت عن حملها الأرض والجبال والسماوات، كيف لا تكون النفس كذلك، وقد خصها الله الكريم بوصف التسوية، وزينها به دون كثير من مخلوقاته، في أرضه وسمائه، إن وصف التسوية ليدل على الكمال والإكمال، ويدل على التقدير والتشريف والإجلال، فالسماء بناء، والأرض فناء، والنفس خلق سواء.

لولا عجائب صنع الله ما نبتت
قلك الفضائل في لحم ولا عصب

❖❖❖❖❖❖❖❖

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك ولا تبصر
وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد بين الله تعالى مراده، فعرف فضله عباده، فوصل الخلق السوي بالإلهام وهو السر المكنون الخفي، "يتم إيقاعه في الروع، ويختص بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملأ الأعلى" معجم المفردات.

فبالإلهام يكون الإدراك الضروري الأولي، وبالإدراك تستجيب النفس لداعي الحق سبحانه، به تتقي، وبه ترتقي. تلك حقيقة النفس الإنسانية، وذلك جوهرها، صفاء لا تشوبه كدرة، وفطرة نقية سوية، فلا عوج ولا شية. وما وصفت به النفس من ضعف ويأس وجحود وكنود... إنما هي علل طارئة، وآفات عارضة، تقي منها التقوى، والاستمساك بعروة الإيمان الوثقى واستحضار كمال الله تعالى وجلاله وجماله في السر والنجوى.

نظرية الوساطة في حرم القرآن الكريم :

شغل القرآن الكريم حيزا كبيرا من أطروحة "نظرية الوساطة في الفن القصصي"، وإنما يعنينا من ذلك أمران اثنان ، عام يتعلق ببعض المفاهيم ، وخاص يتعلق بالتطبيق.

مفاهيم قرآنية في الرسالة :

1- ماهية الإنسان؟

يقول الباحث: "إن مقولة الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه، مركبة من أربعة مفاهيم أساسية ، ترتد كلها إلى المفهوم الأول وفي رأينا أن الكلمة الثانية، لا تدل على الحيوانية بالمعنى المتعارف عليه، وإنما تفيد الحياة بكل ما تعنيه الحياة من حيوية وحركة ونشاط، وذلك مصداقا لقوله تعالى: **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾** العنكبوت: 64.

''إن الآية الكريمة تلخص كثيرا من المقولات والنظريات حول الحياة والإنسان والعلم، ومن هذه النظريات ما تنبه إليه فلاسفة اليونان قديما، مثل قولهم: ''العلم إحساس، والإنسان مقياس كل شيء''''ن الوساطة : 1/ 62.''

ولا مناسبة بين الآية الكريمة، وبين مقولة الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه، ولا بين ما تنبه إليه فلاسفة اليونان، السياق يأبى ذلك ويرده، وقراءة الآية الكريمة من أولها يكفي ويشفي، قال الله عز وجل: ﴿...**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، لو كانوا يعلمون**﴾..

إنها حقيقة من حقائق القرآن الكريم الثابتة الراسخة، الشاهدة المشهودة، الحجة الباقية الدامغة، إنها المقابلة بين الأضداد، ومن خلالها يتبين المكلفون أن الله تعالى، أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه خلق الخلق، كل الخلق أزواجا: ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون**﴾ يس: 36، ﴿**..ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾ الذاريات: 49.

إن لله تعالى حكمته العلية في خلق الخلق أزواجا، فليس في الوجود شيء يستقل بنفسه، ويستغني عن مقابله، فالكل مدموغ بالافتقار ليكون ويبقى ويستمر إلى زوجه، والأزواج كلها بيد بارئها- سبحانه- خلقا وتدبيرا، وكما تدل الكائنات كلها وتشهد لخالقها العظيم بأنه المتفرد بالكمال والجلال والجمال، المستغني بنفسه عما سواه، فإن الآية الكريمة من سورة يس، قد صدرت بكلمة التنزيه ''سبحان''، تنزيه المولى تعالى عن آن يكون له شبيه أو كفؤ من خلقه، ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ الشورى: 11.

■■ فإخبار المولى جل شأنه وتعالى جده، بكون الدار الآخرة هي الحيوان، إنما هو على سبيل الترغيب، ترغيب عباده في الاستزادة من صالح الأعمال، والتنافس في تحصيل أسباب التقوى، والتسابق للفوز بأعلى الدرجات ■■

ولا يزال القرآن الكريم يقابل بين متاع الدنيا الفاني ونعيم الآخرة الباقي، قال جل وعلا: ﴿**قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى**﴾ النساء: 77.

﴿**بل توثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى**﴾ الأعلى: 16-17.

﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة، لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين**﴾ الزخرف: 33-35.

فإخبار المولى جل شأنه وتعالى جده، بكون الدار الآخرة هي الحيوان، إنما هو على سبيل الترغيب، ترغيب عباده في الاستزادة من صالح الأعمال، والتنافس في تحصيل أسباب التقوى، والتسابق للفوز بأعلى الدرجات في الجنة ورضوان من الله أكبر، وقد أكد القرآن الكريم الترغيب في النعيم المقيم

والتحبيب، بالجملة الاسمية، وبأداتي التوكيد، إن واللام، ثم بأداة الشرط إن، وتفيد الإلهاب، والتهييج، والحض والتحريض، وفي مقابل ذلك الترغيب، حذر القرآن الكريم الإنسان من ضعفه، ومثل له زخرف الحياة الدنيا، وأراه فتنتها وعاقبة أمرها-حسرة وندامة- رأي العين، قال الحكيم العليم: **﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر ففي الاموال والاولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾** الحديد:20-21.

2- ماهية النفس، أهي أنفس؟

يقول الباحث: "... ولا تتميز النفس البشرية -في التصور القرآني- بازدواجيتها فحسب، بل بتعدديتها أيضا، فالنفس أنواع، منها:

- النفس الباطنية، وقد تكون هي الوسوسة أو الشيطان، وذلك حين يكون الشيطان هو قرين الإنسان، فيملي عليه المواقف والسلوك والرغبات. **﴿ومن يكن الشيطان له قرينا، فساء قرينا﴾**.

-ومنها النفس الشهوانية: **﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون﴾**.

- والنفس الأمارة بالسوء، **﴿وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء..﴾**.

- ومنها كذلك النفس اللوامة، التي تعد أهم وأجلّ أنواع النفس، لأن الله تعالى أقسم بها بقوله: **﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة..﴾**.

- ومن أنواعها فضلا عما ذكر، النفس المطمئنة أو الراضية المرضية التي وجه إليها الخطاب في النص القرآني، **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾** الفجر 29/27ن الوساطة: 1/ 161/159.

والذي يشهد له القرآن الكريم ، وتباركه أقوال أهل التحقيق أن النفس معنى في الإنسان، به يكون التمييز والإدراك، وقد يطلق لفظ النفس على حقيقة الشيء وذاته، قال الله تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا﴾** النساء: 1.

﴿....ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ الشمس: 7-10.

إن بين تزكية النفس وتدسيتها لمدى بعيدا، هو المدى بين العبد المومن البر التقي النقي الصابر، والعبد الكفور الخؤون الغوي الفاجر، فقد حلق البيان في الآية الكريمة بأجنحة الإلهام، فعلا واعتلى ثم استوى وهو بالأفق السني الأسنى، وذلك أن الله جل وعلا، بعد أن عظم قدر النفس بالقسم بها، وبما استودعها من كمال التسوية، وبما بث

فيها من سر النفخة وهي حفظ وتنقية وارتقاء، وإنما يزكى الزكي، ويبارك في الشيء النقي الطاهر السني، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾** الأعراف: 172-174.

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين إليه واتقوه، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾. الروم: 30-32.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال﴾ الرعد: 11.

فالذي نقض عهد الله، ونكث اليمين، وخان الأمانة، ودنس طهارة الفطرة، وبدل خلق الله، وغير ما بالنفس وما جبلت عليه من خيم كريم، وتنكب بها عن صراط الله المستقيم، هو الإنسان الذي أعده خالقه ومولاه، وشرفه وكرمه وولاه، وحمله أمانة عظيمة أشفقت من حملها الأرض والجبال والسماوات، فلم يزين ولم يشرف ولم يرع ولم يشكر، فاستحق وصف الله تعالى له بالظلوم الجهول، ظلم النفس، والجهل بشرف أمانة التكليف.

3- ماهية إبليس:

تدل مادة الإبلاس على معان متقاربة، اليأس والحزن والتحير وانقطاع الحجة، وهي أوصاف إبليس اللعين وأوليائه، قال الله تعالى: **﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء، وكانوا بشركائهم كافرين، ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾**. الروم: 12-14.

﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون، وما ظلمناهم، ولكن كانوا هم الظالمين﴾ الزخرف: 74-76.

فهم في يأس من رحمة الله، الذي وسعت رحمته كل شيء، قد اشتدت الحسرة، وانقطعت الحجة، فلا شفاعة تنفع، ولا استعتاب يرجى.

ولكننا نقرأ تحت عنوان "الوساطة بين الشيطان والإنسان" ما يلي:

"لبيان طبيعة الوساطة من الوجهة الدينية وفي سياق هذه القصة تحديدا، لا بد من التذكير بإيجاز بتاريخ الصراع بين الإنسان والشيطان، والإشارة إلى معالم هذا الصراع، كما يوضحه القرآن الكريم، فإبليس كما يعلمنا القرآن الكريم، كان أحد الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم عليه السلام لما خلقه الله، ولأنه كان من الجن فسق عن أمر ربه، ورفض السجود لأبي البشرية" ن الوساطة: 262/1.

والآية الكريمة تأبى على الذين قالوا إن إبليس من الملائكة، وترد ذلك من وجهين:

الوجه الأول: تخصيص إبليس بوصف الجنية. والجن جنس من المخلوقات، مغاير للملائكة وللبشر، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات: 56.

- **الوجه الثاني**، أن فسوق إبليس عن أمر ربه، ليس بسبب كونه من الجن، كما يبدو من فاء التعليل "ففسق" إذ من الجن المومنون الصالحون، كما أخبر القرآن الكريم: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضيولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى، مصدقا لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**﴾ الأحقاف: 29-31.

﴿**وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يومن بربه، فلا يخاف بخسا ولا رهقا، وإنا منا المسلمون، ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا**﴾ الجن: 13-14.

إن علة فسوق إبليس عن أمر ربه سبحانه، هو التكليف وحقيقته التمكن من الاختيار، الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، قال تعالى: ﴿**وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق، وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾.

فقد أراد الخلاق العليم من الثقلين، الجن والإنس، أن يعبدوه، لا يشركون به شيئا، ولكنها إرادة تكليف وتشريع، لا إرادة تكوين وتسخير. وأما الملائكة فجنس مخلوق للطاعة، لا تتأتى منهم المعصية، قال جل في علاه: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون**﴾ الأنبياء: 26-27.

نظرية الوساطة، تطبيق على قصص القرآن الكريم:

أعظم البلاغ وأكرمه، وأخسه وأهونه: قال الله تعالى: ﴿**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحدا إلا الله، وكفى بالله حسيبا**﴾ الأحزاب: 39

فقد عظم الله الثواب لمن يبلغ عنه كلمة الحق ، والله تعالى هو الحق المبين، وحذر - سبحانه- في مقابل كلمة الحق، من أن يقول قائل عنه بغير علم، قال جل وعلا: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والاثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ الأعراف: 33.

نقرأ الآيتين الكريمتين، ونضع بينهما كلمة نتبين منها ما ينبغي لمن يتعرض للقرآن الكريم، دارسا أو مفسرا أو مبينا، بأي أسلوب من أساليب الدراسة والتبيين، من حرص على حسن التلقي عن الله عز وجل، ولا سبيل إلى ذلك باستكمال الأداة أولا، اللغة وأساليب البيان، ثم العكوف على الموضوع بتقليب النظر في جوانبه، ومتابعة أقوال أهل الاختصاص فيه، فبهذه الشروط ترجى الإضافة، ويؤمل التجديد.

ونحن نوطئ بهذه الجمل لمناقشة دراسة عن قصص القرآن الكريم، قال عنها الباحث بعد تمهيد: "وما نريد أن نستخلصه من هذا العرض الموجز هو:

1- أن بحث القصص الديني ليس بدعة، ولا ينبغي أن يعد بدعة، فإذا كان أحد الباحثين قد تجرأ على دراسة القصص القرآني دراسة تختلف عن دراسة الفقهاء والمفسرين، وتعرض من جراء ذلك للنقد والهجوم، ووصم بالنعوت غير اللائقة أحيانا، فإن ذلك مما يشجع على المضي في البحث العلمي، إذا خلصت النية، وكان البحث نفسه لغاية نبيلة، هي الدفاع عن القرآن، وتقريب معانيه وتبين مقاصده.

2- أن تجربة د: محمد أحمد خلف الله، كانت جديدة وغريبة في وقتها، أما الآن فإن تطور الوعي الإسلامي من جهة، والعلمي من جهة ثانية، لم يعد عائقا أمام مثل تلك المحاولات العلمية التي أزعجت -في وقتها- بعض الأوساط ، وأثارت حفائظ أصحابها'' ن و:1:17.

ما أنكر وما لا زال ينكر - على صاحب ''الفن القصصي في القرآن الكريم'' : لم ينكر أحد من العقلاء، فضلا عن العلماء، الاختلاف في الرأي، وكيف يكون شيء من ذلك، والقرآن الكريم حمال أوجه، وسماوات من المعاني والحقائق ليس لها حدود، ولا يستطاع لها نفوذ، القرآن كلام الله الذي أحاط بكل شيء علما، وعلم الإنسان- كحواسه- محدود، ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ الإسراء: 85.

﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ البقرة: 255.

كيف ينكر من آتاه الله العلم والحكمة الاختلاف، وهو- في مثل هذه الأمور- رحمة من الله ونعمة، ﴿**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ الروم: 22.

إن ما أنكر على مؤلف ''الفن القصصي''،ليس من العلم في شيء، وليس من اختلاف أهل العلم في شيء، وإنما هو من قبيل الخلط والخبط والقول في كتاب الله تعالى بغير علم، وهذا التبيان، يقول المؤلف متسائلا: ''هل قصد القرآن من قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء من التأثير الوجداني، واستثارة العاطفة والخيال، أو قصد إلى التأثير العقلي وإقامة الدليل والبرهان '' الفن القصصي: 137. كأن الجمع بين التأثيرين، والتوفيق بين المقصدين من قبيل ما لا يكون، وإنه لكائن، لأنهمن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإن كان عقل الكاتب لم يتسع لهذه الحقيقة ولم يومن بها قلبه حينما جزم فقال: ''إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية، من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية.. وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب، وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان'' نفسه: 137.

وقد أخطأ الكاتب وجانب الصواب من وجهين:

أ- أنه فرق بين الحق والجمال، أو بين الواقع والفن، أو الصدق والبيان، والقرآن الكريم معجزة بيانية ، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس لا يماري في ذلك عالم ولا مومن.

ب- أن القرآن الكريم نص على أن ما يقصه الله تعاليمن قصص حق، قال

سبحانه: ﴿.. فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ الأعراف: 7.

﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا، نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى..﴾ الكهف: 9-13.

﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ آل عمران: 61-62.

﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ النمل : 76.

﴿قل إني على بينةمن ربي وكذبتم به، ما عندي ما تستعجلون به، إن الحكم إلا لله، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين﴾ الأنعام: 57.

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمومنين، وقل للذين لا يومنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون﴾ هود: 116-123.

فتلك ست آيات محكمات، تؤكد بدلالة اللفظ والسياق، أن قصص القرآن الكريم حق، والحق هو الأمر الثابت المطابق للواقع ، فقصص الأنبياء وأقوامهم -ومنهم في سورة هود، نوح وقومه ، هود وقومه عاد، صالح وقومه ثمود، إبراهيم أبوه وقومه، لوط وقومه، شعيب وقومه مدين ثم موسى وفرعون وملأه- حق، سبع قصص متوالية متلاحقة في سور مكية كثيرة ، الأعراف، المومنون، الشعراء، القمر، وإلى ذلك يشير قوله تعالى من سورة هود: ﴿وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمومنين﴾ إنه الحق والموعظة والذكرى، وذلك من آيات الله في الأنفس، وهو ما تشير إليه آيات وآيات تقوم به حجة الله على العباد، قال تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها، ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون، بل قلوبهم في غمرة من هذا، ولهم أعمال من دون ذلك، هم لها عاملون، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون، لا تجأروا اليوم، إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتي تتلى عليكم، فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين به، سامرا

تهجرون، أفلم يدبروا القول، أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون له جنة، بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ المومنون: 71/62.

﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله، قضي بالحق، وخسر هنالك المبطلون﴾.

قصص سداه ولحمته الحق، يقصه الله العليم الحكيم بالحق، قد أحاط بكل شيء علما، وأحصاه عددا، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الشهيد الذي لا يغيب، قوله الحق، وحكمه الفصل.

وقد كان وصف قصص القرآن الكريم بكونه خارجا عن دائرة الخبر، فلا يصدق ولا يكذب،و هو السقطة الأولى، وسرعان ما وقع الباحث المجدد في أخرى هي أشنع وأنكى.

قصص القرآن الكريم والأساطير؟؟

يقول مؤلف "الفن القصصي في القرآن الكريم" : "إن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون اعتقادا صادقا، وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفة، ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن ودقته في تصوير إحساساتهم، لا بد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة كانت قوية عندهم، وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ، ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول، إلا إذا كان هناك ما يبرر فعلا هذا القول في تقديرهم، ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد. إن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عندمحمد عليه السلام ، وليس من عند الله" الفن القصصي في القرآن الكريم: 203-204.

وهذا هو التهات في الفهم والتفكير والتعبير جميعا، وآية ذلك :

- أولا: أن الباحث لم يكلف نفسه تعريف الأسطورة ليعلم بشاعة الجرم وشناعة الإثم بنسبة الأساطير إلى كتاب الله عز وجل، وقد سماه الله الحق المبين، وحق اليقين، فلا شبهة فيه ولا التباس ولا مين. إن الأساطير في اللسان العربي كما ذكرت المعاجم، هي من "س،ط،ر"، وهو أصل مطرد سدل على اصطفاف الشيء، كالكتاب والشجر وكل شيء اصطف، فأما الأساطير فكأنها كتبت من الباطل، فصار ذلك اسما لها مخصوصا بها، يقال سطر فلان تسطيرا، إذا جاء بالأباطيل، وواحد الأساطير إسطار وأسطورة " معجم المقاييس.

ثانيا : أن الباحث لم يحسن قراءة الآيات التي ذكر فيها لفظ الأساطير، ولم يتبين مضمونها، ومراد المشركين منها، ولو أنه فعل لألجم قلمه، ولم يخبط مثل ذلك الخبط المشين، الذي يقذف الشبه والكدر في حرم الكتاب العزيز والتور المبين، والآيات حسب ورودها في المصحف الشريف هي: **﴿ومنهم منن يستمع إليك، وجعلنا على**

قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يومنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك ، يقو الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ الأنعام :25.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ الأنفال: 31.

﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم، قالوا أساطير الأولين﴾ النحل : 24.

﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ المومنون: 83.

﴿وقالوا أساطير الأولين، اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ الفرقان: 5.

﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ النمل: 68.

﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ الأحقاف: 17.

﴿ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ القلم: 10-15.

﴿ويل يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ المطففين: 10-13.

تلك هي الآيات البينات -في مواردها التسع-التي ذكر فيها لفظ الأساطير، وليس منه آية واحدة تتعلق بقصص القرآن الكريم، وليس فيها ما يشير إلى أن المشركين قالوا إن في القرآن أساطير، بل قالوا إن القرآن أساطير، كل أساطير، والبون شاسع بين مرادهم، وبين ما ذهب إليه الكاتب الباحث المجدد؟؟؟؟ يريدون بوصف القرآن بذلك، التكذيب به وبحامله، وبما جاء به، مما يصلح عليه حال العباد في النيا ، وينالون الجزاء الأوفى في الآخرة ، لم يحقق الباحث شيئا من ذلك، وإنما استهوته الشبهة القوية الجارفة، شبهة المشركين كما قال، وإني لأعجب كل العجب، أن تكون الشبهة قوية جارفة، واعتقادا صادقا، وهي ليست شيئا غير الالتباس والاختلاط والخبط، لا تبين معه، ولا يقين فيه، ولا اطمئنان إليه. ولله في خلقه شؤون، يعز من يشاء بتوفيقه، ومن فاته التوفيق يخذل ويهون.

قصة يوسف عليه السلام ونظرية الوساطة:

وبين يدي هذا العنوان نقدم بيانا من خلال إشارتين:

الإشارة الأولى تتعلق بالقصص الديني وأنه أنواع :

1- القصص الحق.

2- قصص حرم على الذين هادوا.

3- قصص الرسل

4- قصص القرى

5- قصص أنباء ما سبق

6- القصص بالعلم

7- القصص الفصل

8- أحسن القصص، أو قصص الرؤيا. [أن الوساطة: 1: 211-214].

والإشارة الثانية تتعلق بقصة يوسف، وأنها أحسن القصص.

الإشارة الأولى: إن لفظ القصص في القرآن الكريم، بفتح الأول والثاني، صيغة مصدرية، تدل على فن القص، وهو تتبع الأثر الحسي أصلا، ثم استعمل في حكاية ما كان من أخبار السابقين بالأسلوب الفني المعلوم فهو جنس من فن القول، كان شائعا في آداب الأمم، تختلط فيه الحقائق بما هو خيال بقصد الإثارة والإمتاع، وقد ورد القصص في القرآن الكريم، حيثما ورد موصوفا بما يناسب الوحي الإلهي ويليق به، ويفارق العمل البشري ويعلو عليه، ورد موصوفا بالحق، فهو من الحق يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فعن أصحاب الكهف يقول الله تعالى: ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا، نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والارض، لن ندعوا من دونه إلها، لقد قلنا إذا شططا..**﴾ الكهف: 9-14.

وقد شغلت القصة من السورة الكريمة ثمانيا وعشرين آية، تكتنفها إشارات إلى ما خالط أخبار الفتية من تخيلات بشرية وتخرصات، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق**﴾ جملة قصر تقول: إن العالم بحقيقة أمر الفتية وما من شأنهم، هو الله وحده، وقوله تعالى: ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم، ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله، واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا، قل الله أعلم بما لبثوا، له غيب السماوات والأرض، أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحدا**﴾ الكهف: 22-26.

وقد نهى الله تعالى رسوله الكريم والمومنين معه، عن المراء بل إنه سبحانه نهى عن أن يستفتى فيهم أحد غير الله العليم الخبير، ليصرف القلوبالمومنة إلى النظر والاعتبار.

وكما وصف القصص القرآني بوصف الحق ، فإنه اقترنبوصف العلم، وبينهما تلازم فحيثما كان الحق ثبت العلم قال الله تعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه، لتنذر به وذكرى للمومنين، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوامن دونه أولياء، قليلا ما تذكرون، وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون، فما**

كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين، فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين، والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولائك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولائك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ الأعراف: 1-9.

فالقصص القرآني جنس واحد موصوف بالحق والصدق، ناطق بعلم الله المحيط ، شاهد مصدق، وهو -كله- أحسن القصص.

الإشارة الثانية: وصف قصة يوسف ب "أحسن القصص"؟؟؟؟

يقول الباحث: "ومن المؤكد أن الطابع الذي ينفرد به النوع الأخير، هو كونه يحمل مقدمة نقدية موجزة تصفه بأنه: "أحسن القصص".. ولذلك فقصة يوسف نموذج مثالي للقصة الفنية ، بل هي نموذج فني فريد من نوعه، لأنه لا يتوافر على متطلبات وشروط القصة بمعناها الحديث فحسب، بل هو نموذج رائع يجمع بين خصائص القصة والمسرحية والشعر والأسطورة، بدلالتها الإيجابية" ن الوساطة : 1:215.

ونرى في هذه الأسباب دعاوى عريضة، لا تثبت بها الأفضلية لقصة يوسف عليه السلام من بين قصص أنبياء الله ورسله، آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام، فيوسف ليس أفضل من رسل الله، وليس معدودا من أولي العزم من الرسل، الذي أمر الله رسوله المصطفى ﷺ، أن يتأسى بهم في الصبر والمصابرة والمرابطة والثبات والمناصحة وحسن المخالقة. **﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الخاسرون﴾** الأحقاف : 35.

ونحن بهذا لا نفرق بين رسل الله، فكلهم من المصطفين الأخيار، ولكننا نضع الأحكام في الميزان، إحقاقا للحق، واحتفاء ومشاركة للباحثين، أولي النهى والأبصار، فيما يسعون إليه من تنوير العقول وتزكية القلوب.

ومن حق القارئ على الباحث -وهذه عبارة كثيرة الورود على لسانه وقلمه- أن يسائله عن قوله: "ومن المؤكد أن الطابع الذي ينفرد به النوع الأخير، هو كونه يحمل مقدمة نقدية موجزة، تصفه بأنه "أحسن القصص"؟؟" ن الوساطة: 1:215.

جملة وصفية خبر لمبتدأ، تعطي حكم المقدمة النقدية، شيء عجيب يشبه السحر وما هو به، ثم إنه خبر له صفة العموم يشمل قصص القرآن الكريم كله كما تبينا، يؤكد ذلك قوله تعالى: **﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن..﴾** ، فهو بيان الاستحقاق، يصدق على القرآن وما يتضمنه من حق وحكمة وبيان وحجة.. للنفس به أنس يخرجها من وحشة الطين، فترقى وتحلق في أفق اليقين، يقول العلامة ابن عاشور: "وجعل هذا القصص أحسن القصص، لأن بعض القصص لا يخلو عن حسن ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل يقصه القاص في غير" القرآن، وليس المراد أحسن قصص

القرآن حتى تكون قصة يوسف عليه السلام أحسن من بقية قصص القرآن، كما دل عليه قوله: ﴿**بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ التحرير والتنوير: 12/203-204.

ولو سلمنا -جدلا- أن لقصة يوسف في القرآن الكريم ما يميزها ويجعل لها وقعا خاصا، وصدى شديد الأسر، له دوي يملأ جوانب النفس البشرية، يسعر الإحساس ويلهب العاطفة، يجعلها تتلظى، وعلى أبواب الفتنة الموصدة، تئن، تستجلي، تهمس.. تتمنى أية حصانة تلك، وأي حصن ذلك الذي استعصم واستعصى، ثم علا واستعلى وجيوش المراودة اللينة الشرسة القوية الضعيفة، الطالبة المطلوبة، شديدة البأس العليلة قهر، فما ضعف وما استخذى، وما هم بشيء يخل بقدر من أوتي الحكم والعلم، ثم استوى على هرم العفة والحلم. لو سلمنا بشيء من ذلك، لوجدنا في قصص القرآن الباقين، لقطات تستثير العاطفة وتستجيش الوجدان، ومن ذلك قول الله تعالى في قصة آدم عليه السلام وإبليس اللعين، والخطاب عام، ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يومنون، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليه آباءنا ، والله أمرنا بها، قل إن الله لا يامر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ الأعراف: 27-28.

فنحن نتمثل في هذا المشهد، أصل الفتنة التي ابتلي بها يوسف عليه السلام فاستعصم، نتمثل أهم مداخل الشيطان اللعين إلى النفس، استفزاز الأهواء بكل ما يثير الشهوات، ويستخف الأحلام، ويسعر نار الغرائز، ولإبليش جيوش مجيشة، وله أعتدة مرصودة مصوبة، دأبه التدليس والتلبيس، يبعث في الدماء أعاصير، ويفتح لكل غواية أبوابا، على كل منها دعاة على ألسنتهم ألحان للإغراء فيها صولة ، وللهو طبول ومزامير.

وفي قصة موسى عليه السلام بمدين مشهد فياض بالعاطفة الإنسانية النبيلة التي استودعها الخالق الحكيم، الجنسين الذكر والأنثى، قال العلي الأعلى: ﴿**...ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمن من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص، قا لا تخف نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما : يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشرا فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك، ستجدني إن شاء من الصالحين، قال ذلك بيني وبينك، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي، والله على ما نقول وكيل**﴾ القصص: 22-28.

فياله من إيجاز، هو عين الإعجاز، رجل طريد، خائف غريب، تحمله المروءة وتدعوه الشهامة إلى نصرة الضعيف، الناس يقبلون

على المورد يسقون، يخلف بعضهم بعضا، وامرأتان خفرتان تعفان عن الزحام، مشهد ينبئ عن الأثرة وحب الذات، القوي يكسع الضعيف، فلا نصير من جار، أو صديق، أو لفيف، يرى الغريب المشهد، فلم يحتم ويسأل سؤال المتعجب الغيور: ﴿**ما خطبكما؟**﴾ فيأتي الجواب: ذاك شأننا مذ كنا، لانزاحم ولا نطيق الزحام ولا ينبغي لنا، وليس لدينا من يكفينا، فأبونا شيخ كبير، يا له من بيان، يستثير المروءة ويستنهض النخوة، ضعفان، ضعف الشيخوخة، ضعف الأنوثة، وقد حلا بساحة الشهامة والفحولة، ﴿**فسقى لهما**﴾، كيف؟ بأي ساعد نزع؟ ماذا فعل الرعاء وهذا الغريب يقلب الموازين، ويخالف المعهود؟؟؟

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن
فكيف حال غريب ما له قوت؟؟

مشهد رائع ابتهجت له الفضيلة وطربت المروءة ورضي عنه الحق وخنس الباطل وذل، ﴿**ثم تولى إلى الظل، فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير**﴾.

شكر جميل وإقرار بنعم المنعم سبحانه، ثم استزادة من فيض ذي الفضل والإكرام، إننا نلحظ ماترشح به الآية من حاجات تلك النفس الكريمة الخائفة المترقبة، الغريبة المستوحشة، المشبعة بالمكارم، البالذلة للخير، تطلبه وتسعى في تحصيله بشغف الأخيار أولي الفضل والشرف والعزائم. لقد قدح المشهد زناد نفس، بالنبالة والمجادة ملأى، وجدت في خفر الأنوثة، عفتها وحيائها طلبتها الكبرى فوضعت حاجتها بباب الكريم، عالم السر والنجوى، فلم تتأخر الإجابة ﴿**فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾. مشهد ساكن متفجر، ساكت ناطق، تتمثل الأنوثة من خلال رفيقة رقيقة وديعة لطيفة، لها صولة وصولجان، لها بهما العز والسلطان، ولله في خلقه شؤون، ضعف يسكن إلى قوة، وقوة تستروح الراحة وتطلب المودة من ضعف، زاد وأي زاد، فيه الغني والغناء، تجلت في أحداثه وشخوصه العبرة والحكمة، وأشرق في أفقه الجمال والطهر والبهاء.

شخصيات قصة يوسف عليه السلام:

تقول معاجم اللغة: إن الأصل في مادة ش،خ،ص، يدل على ارتفاع وظهور، قال الله تعالى: ﴿**ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء**﴾ إبراهيم: 43.

﴿**واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين، إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم هم لها واردون**﴾ الأنبياء: 97-98.

وشخوص البصر ارتفاعه، إذا رأي ما هاله وأفزعه، وشخصيات القصة أو الرواية هي العناصر الفاعلة المؤثرة المتميزة، وتكون واقعية أو متخيلة يقول الباحث: "تتكون القصة من شخصيات كثيرة أبرزها، الذات الإلهية، فالله جل جلاله هو راوي القصة.. وبالإضافة إلى اسم الجلالة، هناك الشخصيات البشرية الآتية:

يعقوب، يوسف، إخوته، شقيقه بنيامين، إبراهيم عليه السلام، إسحاق، التاجر، عزيز

مصر، امرأة العزيز، الشاهد، نسوة المدينة وعددهن أربعون نسوة حسب الروايات، الفتيان، الملك، حاشية الملك الملأ، فتيان يوسف، منهم المنادي الذي نادى في العير، البشير الذي جاء بالقميص، يهوذا أخو يوسف من أبيه، روبيه أخوه الآخر من أبيه، الذئب، الشيطان الرجيم، وأخيرا شخصية جبريل عليه السلام، الذي تذكر بعض كتب التفسير أنه كان يتدخل في الوقت المناسب خلال مجريات القصة'' ن الوساطة: 1/ 238-239.

تلك هي الشخصيات البارزة في قصة يوسف عليه السلام، وعددها عشرون، بما أن للشخصيات الثانوية تأثيرا بينا في توجيه الأحداث وتلوين المواقف، فإن من المفيد استحضار الكواكب أحد عشر، والشمس والقمر، والرسول الكريم محمد ﷺ والغافلين، ﴿**وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ فهم الجمهور وأل يعقوب والسيارة الذين هم قافلة التجار، ليكون هنالك توازن بين الممثلين والمشاهدين، فإذا كان عدد نسوة المدينة أربعين، فإن حاشية الملك ينبغي أن تكون ضعف ذلك أو تزيد، وهناك الوارد صاحب الدلو يقابل التاجر والشاهد، ولا يليق أن تنسى البقرات السبع السمان، وأخواتهن العجاف، فذلك مما تزدان به الصورة، والضد يظهر حسنه الضد، ولا بد من استحضار الزمان والمكان، حيث يحارد البؤس النعيم، ويواسي الرغد العميمي العوز والحرمان الأليم، ومما يحسن في موازين القيم العليا، أن يواسى ذلك الذئب المسكين، الذي لبس التهمة الكاذبة، فيهنأ بظهور البراءة، وشاهده يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟؟؟؟.

إنها قراءة لقصة يوسف شبيهة بحاشية متخيلة على متن لحمته وسداه الصدق والواقع الحي، تغنى به الحياة وتعلو، وتتسع المدارك الإنسانية وتسمو، وتطهر العواطف وتصفو، فلا حاجة لقصة يوسف عليه السلام في شخصيات متكلفة تضاف، وهي الغنية المغنية، الزاخرة بالقيم الثابتة الباقية العلوية، اصطلحت فيها – على توحيد الله العظيم، والخضوع لجلال وجهه الكريم الأجرام السماوية، والأرض الذلول، وما عليها وفيها من خزائن وكنوز مطوية، وكان الإنسان فيها المخلوق المصطفى المستخلف المكرم، الهامة المزينة بتاج العبودية، إذ سما وعلا ثم عرج وارتقى عبر طينيته حتى شارف منزلة عمار الحضرة القدسية.

المراودة، قمة الابتلاء ومفصل القصة:

وهي كذلك بما سبقها وبما اكتنفها وبما لحقها، فالرؤيا والجب والرقية مقدمات ممهدات، والسجنوتعبير رؤيا الملك والتمكين في الأرض لواحق متوجات، والمراودة وما اكتنفها تأخذ من تلك وتفضي إلى هاته، وساطة كريمة، تمثلت فيها الفضائل كلها والحقوق، حق الله، أن يذكر فلا ينسى، وحق النفس أن تزكى، وحق الآخر أن يصان ويرعى، قال تعالى: ﴿**وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، ولنعلمه من تاويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين، وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك، قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همت به،**

وهم بها لولا أن راى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين﴾ يوسف: 21-24.

المراودة وال "هـم" في ميزان الوساطة :

يقول الباحث في حق يوسف عليه السلام:

"هو وسيط بالمعنى الإيجابي، النموذ والمثال بالنسبة للعزيز، الذي لا حظ عليه مخايل الذكاء والشرف والمجد، وكذا بالنسبة لامرأة العزيز التي خلبها جماله، فهفت نفسها إليه، ولكن هذه الوساطة الإيجابية مازجتها وساطة أخرى سلبية، تمثلت في تدخل الشيطان كوسيط شر ومكر، فهو الذي أوعز مرة أخرى إلى امرأة العزيز بإغراء وإغواء يوسف ليوقع الإثنين في الخطيئة، بعد أن حز في نفسه -نفس الشيطان-، نجاة يوسف من القتل، فسعى إلى ملاحقته في بيت العزيز ، ونصب له شراكه متخذا من المرأة واسطة أو وساطة جديدة، ومصداق كل هذا ما جاء في الخبر: "ما أيس الشيطان من أحد، إلا أتاه من جهة المرأة" "ن الوساطة : 261/1.

وفي هذه الفقرة ما يستدعي المساءلة :

- كيف وبأي اعتبار يكون يوسف وسيطا إيجابيا، ونموذجا مثاليا، بالنسبة للعزيز لما توسم فيه من مخايل الذكاء والشرف والمجد، ثم يكون كذلك وسيطا إيجابيا بالنسبة للمرأة وقد خلبها جماله فهفت نفسها إليه؟؟؟ لقد اختلفت الرغبة ، رغبة العزيز، ورغبة المرأة ، ويترتب على اختلاف الرغبة اختلاف الغاية؟؟

- كيف دخلت الوساطة السلبية، وساطة الشيطان ليزين للمرأة أن تغوي وتغري بالخطيئة، والحال أن الفتى قد شغفها حبا، فأية حاجة لها في وساطة سلبية خبيثة؟؟ أليس في سعيها وتوددها لمملوك من مماليكها -وهي السيدة المملكة الآمرة المخدرة المطلوبة- ما يكفي ويغني عن وساطة شيطان من إنس أو جان؟؟

- إذا سلمنا بمقولة: "ما أيس الشيطان من أحد، إلا أتاه من جهة المرأة"، فمن أين يأتي الشيطان المرأة، وهي أحد من خلق الله، وقد قال الله عن امرأة العزيز، إنها فتنة بيوسف فتنة دونها كل فتنة، بل إن نسوة المدينة، وهن علية القوم، قد قلن قولا، بسطن فيه رداء العذر، وكففن لسان اللوم والتشهير، قلن والبهر يقطع الأنفاس، والمشهد يغني عن التقريب والقياس: **﴿وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنرايها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن، أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا، وآتت كل واحدة منهن سكينا، وقالت اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن حاش لله، ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن، وليكونن من الصاغرين﴾** يوسف: 30- 32.

ولا تزال القرون تردد وتتغنى بالحسن، وصار يوسف رمزا لسلطان الجمال، يقسم به، أو بالقدرة الإلهية التي أبدعته:

الحسن حلفت بيوسفه ... والسورة أنك مفرده
وتمنت كل مقطعة ... يدها، لو تبعث تشهده

صراع الرغبتين في مشهد "الهم":

يقول الباحث: "وقف العلماء طويلا عند المشهد الخاص بصراع الرغبتين، الرغبة الإيجابية والرغبة السلبية، النبوية والشيطانية في بيت العزيز، وتأول المفسرون عبارات **﴿ولقد همت به، وهم بها..﴾** ومن هذه التفسيرات أن عبارة **﴿وهم بها﴾** تعنى مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية، لولا أن رأى برهان ربه، وقد اختلف في تفسير البرهان، وهل هو الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنى، أو هو رؤية اليقين بالمشاهدة، أو حصول الأخلاق في نفس البيت، وتذكره الأحوال الرادعة عن الإقدام على المنكر، أو رؤية البرهان مكتوبا في سقف البيت..، ومهما اختلفت تأويلات هذه الأقوال الواردة في الآيات الخاصة بالمشهد المثير، فإنها تؤكد كما أكدت الآيات نفسها انتصار الوساطة الإيجابية على الوساطة السلبية" 267/1.

الوساطة في مقابلة سيادة النص أو حكمه وبيانه:

1- يقول الباحث: "وقف العلماء طويلا عند المشهد الخاص بصراع الرغبتين، الرغبة الإيجابية والرغبة السلبية، النبوية والشيطانية في بيت العزيز...."، ونحن نسائل نظرية الوساطة التي تقوم على أطراف ثلاثة، راغب ومرغوب فيه وواسطة، وفي المشهد "المثير" نرى العناصر الثلاثة فاعلة متفاعلة، الراغب أو الذات الراغبة امرأة العزيز، والمرغوب فيه، يوسف عليه السلام، والواسطة وهي المراودة وتغليق الأبواب، والله أعلم بما كان بينهما من نظر وابتسام وكلام، وآهات صامتة فصيحة، وعرض لكنوز فاتكة فاتنة، تستفز رغبات في حضن البراءة كامنة نائمة ساكنة، الله تعالى أعلم بما كان من ذلك، كيف كان، وفي أي مدى من الزمان كان سفيرا للذات المسكونة بالرغبة الجامحة، فما استكان ولا لان، وعلى أي فإن نظرية الوساطة تسمي ذلك الذي جرى صراع الرغبتين، الرغبة الإيجابية والرغبة السلبية، النبوية والشيطانية، وقد تمثلنا الوجه السلبي الشيطاني، وقد أقرت المرأة واعترفت وجهرت بالحق الذي كتمت، **﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾** يوسف: 32.

﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ يوسف: 51-52.

وبذلك تثبت الرغبة السلبية، فأين أختها الإيجابية النبوية والحال أن يوسف عليه السلام لم يرغب ولم يهم، خلافا لما ترمي إليه عبارة "الميل إلى المخالطة بمقتضى الطبيعة البشرية"، وردا للقول الوارد بصيغة التمريض: "وقد قيل إن جبريل سأله حين قال **﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب..﴾**، ولا حين هممت، فأجاب عليه السلام قائلا: **﴿وما أبرئ نفسي﴾**، وفي هذا الجواب إشارة إلى ذلك النوع من النفس البشرية التي أطلق عليها القرآن الكريم تسمية "الأمارة بالسوء"، وهي مصدر الوساطة الشريرة والوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس"ن الوساطة: 269/1.

2- سيادة النص، حكمه بيانه :

عرف النقد الأدبي مدرستين رئيسيتين، إحداهما تدرس النص وتفسره من خارجه، فتبحث في ظروفه، وتنظر في ما اكتنفه من عوامل وأسباب موضوعية، لها فيه تأثير أي تأثير، فهو بها ومنها وإليها، نتاج تفاعل حتم، جرى به قضاء سابق وتدبير، ومن هذه المدرسة نهلت نظرية الوساطة ، فللتاريخ حضور، وللاجتماع بقوانينه وأعرافه وتقاليده توجيه وحضور.

أما المدرسة الثانية فتعنى بدراسة النص وتحليله من داخله، فالنص عندها بمقوماته الفنية، بعبقريته الذاتية، بنمطيته وتفرده وريادته.. يفعل فعله، يغير ما حوله، يجدد معنى الحياة بما ينفخ فيها من روحه، ويبثها من سره ووحيه، ويعيرها من نبضه، فتهتز مناكبها وتربو، وتنبت من كل يبهج ويسعد ويسمو.. تلك رسالة الإبداع منذ كان الإبداع، أن يزرع بذور الأمل، ويستجيش بواعث النبالة والمجادة في النفوس، أن يحبب إليه صالح العمل.

وقد نظرنا بعين التحليل الجاني في مشهد "الهم" المثير، من قصة يوسف عليه السلام فأفضى النظر إلى أن يوسف الكريم، كان التجسيد الكالم للعفة والعصمة والطهر والبراءة، كان المثل الأعلى قلبا وقالبا، فلم يهم ولم يكد، ولم يكن منه شيء مما قيل رجما بالغيب، فلا برهان، ولا قرائن بها يستجلي الصواب ويركن إلى برد اليقين. وأول ما يطالعنا من آيات البراءة المطلقة، والطهارة التامة المحققة:

- أن الله تعالى قال في حقه، بعد نجاته من الجب واسترقاقه والزهد فيه وإيوائه: **﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين﴾** يوسف : 22 .

وهي صفات من كمل في ذاته واكتمل، وبلغ من القوة ما يرجى ويؤمل، ثم أفاض الله عليه وهي من حكمته وعلمه ما أفاض، فنكر الحكمة والعلم تنكير تعظيم، وألحقه تعالى بزمرة عباده المحسنين الذين تحلوا بما يكرم ويحسن من الأعمال، فكان من الآمنين.

- أن قوله تعالى: **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه..﴾** مشعر بقوة الرغبة في نفس امرأة العزيز، دال على طول المدى، والتوسل بكل أساليب الإغراء والتلطف والحيل، بلا كلل ولا عياء، والباعث على كل ذلك أن يوسف عليه السلام في حصن للعفة حصين.

- أن تغليق الأبواب إنما هو عنوان لضروب من التدبير، وراءه ومعه إعداد النفس، بشحذ أسلحة الفتنة، وعررض ألوان الإغراء، وإبعاد الرقباء.. وذلك لا يتم بين صباح ومساء.

- أن قول المرأة **﴿هيت لك﴾** سوط متلهب، وصوت مشحون بمعاني الضراعة والاستسلام، وهو في الآن نفسه جيش فاتك، دون ضعفه الموت الأحمر الزؤام.

- أن قول يوسف **﴿ قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون﴾**، إنما هو تمثل وتشخيص لمعاني العفة والعصمة ، واستحضار وتحقيق لما وصفه الله به من قبل، كمال في الفضائل واكتمال، وحكمة وعلم من فيض الحكيم العليم، وشهادة إحسان، وهي صفات يفل لها حد الفتون، يبور السعي ويخور السلطان، إنها الترجمة المثلى لمعنى الإحسان في حق

الله المنان، ورب البيت الغائب، الذي وصى به خيرا منذ أزمان..

- أن قوله تعالى بعد: ﴿**ولقد همت به وهم بها**﴾ مشهد هو نقطة، بل هو لحظة تناظر خلالها الضعف غاية الضعف، والقوة منتهى القوة، فكيف ترى؟ وماذا ترى؟ التصالح والتراضي وهو ما لم يكن، غلبة الضعف؟ هيهات هيهات، ثم هيهات هيهات.. غلبة القوة، وهو ما كان.

- أن قول المرأة المفتونة، أمام النسوة:

﴿**..ولقد راودته عن نفسه فاستعصم..**﴾، إنما هو شهادة البراءة التامة الكاملة، براءة القلب والعين واللسان.. شهادة معلنة ثابتة مؤكدة، قابلت فيها الشاهدة المصدقة لأنها شهدت على نفسها وهي في عزها بأنها رغبت فطلبت، ثم سعت وتوسلت بكل وسيلة تنيلها مرادها، على مدى من الزمن، وأحوال من نفس ظمأى، فلا كلل ولاملل أو ترضى، فعلت وفعلت، ثم دبرت، ثم قدرت، ويوسف المرغوب فيه، يقابل بالصد، فلا منفذ وما من سبيل، قالت الشاهدة ﴿**فاستعصم**﴾، وهو لفظ جامع، دال بكل حرف فيه على التمكن والثبات والحفظ.. فالفاء للفورية، أي أن كل محاولة منها، تروم إحداث ثغرة في سور العفة المنيع، كانت تقابل فورا بالصد والمنع، والألف والسين والتاء، لمدد المتجدد، فكلما اشتد الهجوم وتنوعت وسائل وجنود القوة الغازية الباغية، قوبلت بقوى صد متجددة مانعة، وتدل صيغة الفعل الماضي على الجزم والقطع فلا مساومة، ثم إن مادة: ع، ص، م، أصل لغوي واحد صحيح، يدل على المنع والحفظ والإحاطة، والفعل موضع وقف عند قراء القرآن الكريم، وليس برأس آية، إشارة منهم أغنتعن عبارة، أي عبارة.

المراد بقوله تعالى: ﴿**ولقد همت به وهم بها..**﴾:

لعلنا قد دفعنا ما سبق ويسبق إلى النفس، ما قيل ويقال من أن يوسف عليه السلام مال إلى الفعل والمخالطة، لولا أن العناية الإلهية تداركته. نقول: إنا قد رددنا ذلك الخاطر الذي يساور النفس ويوحي به الموقف، وشغل صفحات من كتب التفسير، وفيه ما لا يليق بعبد مخلص آتاه الله حكما وعلما، وجعله من المحسنين، رددنا ذلك بما يكفي ويشفي، وبقي علينا بعد الدفع والرد، أن نبين المراد من الهم، لئلا يبقى المعنى معلقا، فنقول وبالله التوفيق:

إن المراد ب ﴿**ولقد همت به**﴾ التأديب، وذلك منها سجية من سجايا النفس البشرية، فقد بلغ شفق المرأة بيوسف الغية، فلا مزيد، وبذلت له كل ما يبذل وفوق ما يبذل، بذلت الأنوثة ودلال الأنوثة وكرامة الأنوثة، فطلت وهي المطلوبة، ورغبت وهي المرغوب فيها، وتواضعت وهي السيدة الآمرة، لمن هو من خولها وحشمها، لها الأمر، وعليه الامتثال والطاعة.. فتحقق فيها القول السائر: "إذا بلغ الشيء حده جانس ضده"، فانقلبت العاطفة الجياشة المحمومة المتوددة، غضبا أعمى، وكرها أكولا ماحقا أعتى، فهمت بالتأديب، والعصى لمن عصى، وقد هم يوسف بالصد وتهيأ للرد، فتداركته يد المروءة، ونخوة الرجولة فما أجاب، وآثر أن يستبق الباب ذلك هو الهم الذي كان بينهما، وليس ما يسبق إلى نفس القارئ، وهو من من باب الإسقاط وفيه كشف ووشاية بما سيكون عليه حاله، لو امتحن

بمثل ذلك الامتحان العسير، الفيتنة فيه تختال، لها صولة وسلطان قاهر، لها زئير.

يطلق لفظ الهم في اللغة على الصهر والذوبان، ويلزم منه الشدة والتسلط، وهوما جرى عليه استعمال القرآن الكريم، فلم يرد في خير أو أمر محمود، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المومنون**﴾ المائدة : 11.

﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم، إذ همت طائفة منكم أن تفشلا، والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المومنون**﴾ آل عمران: 121-122.

﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما**﴾ النساء : 113.

﴿**ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مومنين**﴾ التوبة: 31.

وبه يعلم ويتبين أن الأمر الذي همت به امرأة العزيز - بعد المراودة والتودد - وهم به يوسف - عليه السلام بعد الاستعصام والتعفف- ليس من قبيل ما تداوله المفسرون والدارسون، وأسلموا فيه الزمام لداعي النفس، أسقطوا، ظنوا الظنون وتقولوا، بل هو من قبيل الشر ، لقد همت بالتأديب والإيلام والمعاقبة، وهم بالدفع والمناكدة، فألهم الاستباق نحو الباب، حيث تم الكشف عن السريرة المخذولة واستبان الحق، وتجلت الفضيلة، بالطهر والعفة موسومة، وبرأ الله يوسف المخلص من السوء ظنا، فما ألم بساحة عفته، طيف وما التفت وما هما. لقد استعصم ب: ﴿**معاذ الله**﴾، ولسان حاله يجأر، في بحر الفتنة اللجي: يا اللهم يا اللهما، فكانت العناية الإلهية له مهادا، وإلى سماء المكارم سلما.